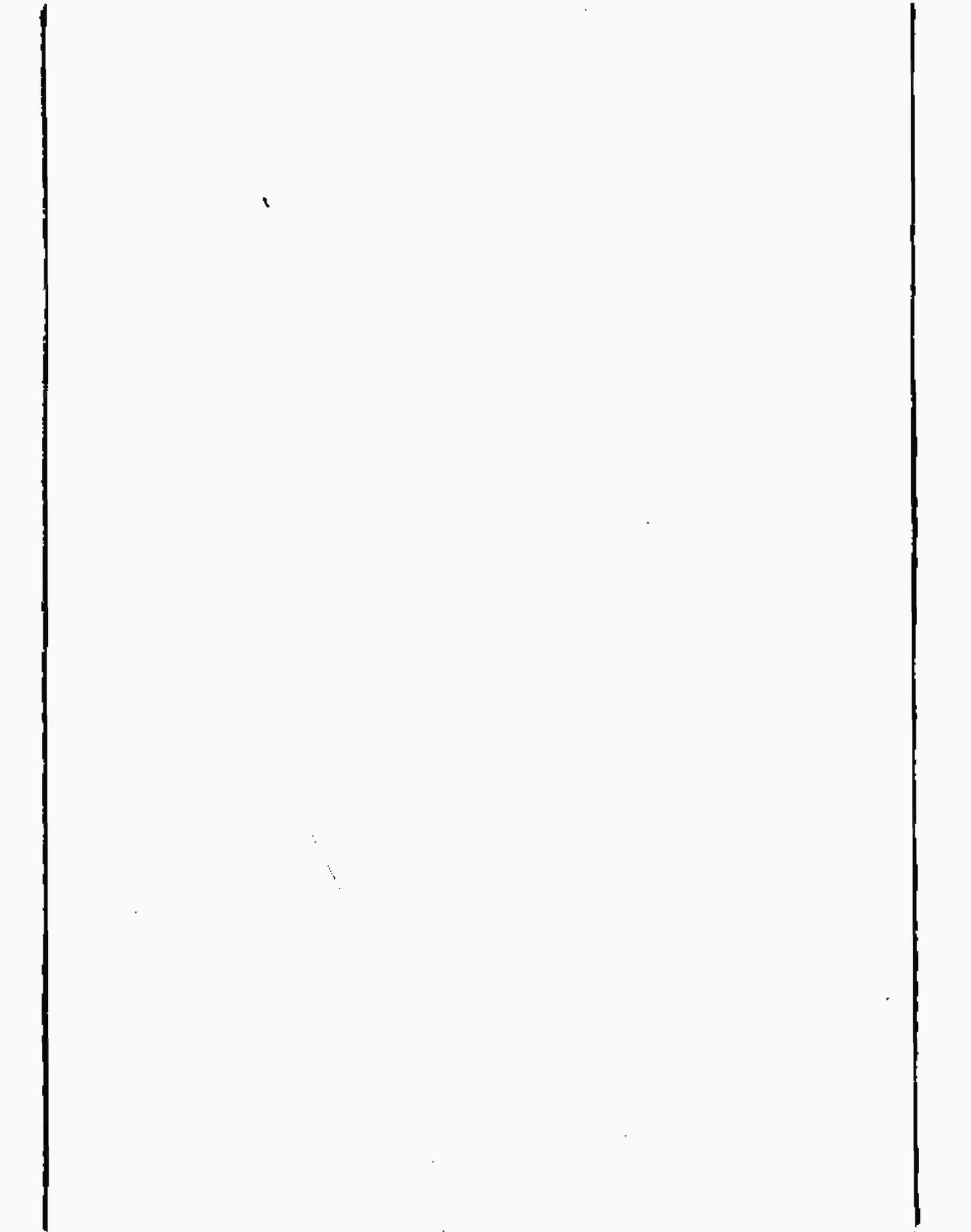


**التبادل الثقافي**  
**بين الإسكندرية والغرب الإسلامي**  
**في العصور الوسطى الإسلامية**

بمّ مقلّم من

الأستاذ الدكتور

السيد عبد العزيز سالم



## التبادل الثقافي بين الإسكندرية والغرب الإسلامي في العصور الوسطى الإسلامية

كانت الإسكندرية في العصر البطلمي -بمجمعها العلمي ومكتبتها المشهورة- منار العلم ومركز الإشعاع الأول للثقافة الهلنستية في عالم البحر المتوسط، وكانت منتهى الغاية، ومقصد العلماء، ووطن أولى العلم والحكام، ومنتجع الفلاسفة والشعراء. وظل مجمعها العلمي ومكتبتها صرحان عظيمان يحملان مشعل الحضارة الإسكندرية<sup>(١)</sup> إلى أن بُدنت مكتبتها إثر حريق سنة ٤٨ ق.م. الذي اتهم قسماً كبيراً منها، ثم قضى الاضطراب السياسي والنزاعات الدينية والمذهبية بها في عصر انتشار المسيحية -وبالذات في سنة ٢٧٢م- على العدد الأعظم مما تبقى من هذه الكتب، وقُدمت الإسكندرية بالتدريج مكانتها السياسية التي كانت تتبوأها بين مدن البحر المتوسط وحولضره في العصر الروماني بسبب سياسة القمع والاضطهاد التي كان يمارسها الرومان في عصر الوثنية ضد دعاة المسيحية ومعتقبيها في مصر لا سيما في عهد الإمبراطور ثيوديانوس الذي قدم إليها بنفسه سنة ٢٨٤م لإخماد ثورة أهلها عليه، وخراب عمارتها واستباح أراضيها، وحتى بعد اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية ديناً لها بسبب احتدام النزاع المذهبي بين الكنيسة البيزنطية وكنيسة الإسكندرية وإيمان الأباطرة البيزنطيين في سياساتهم التعسفية ضد كنيستها مما أدى إلى انتشار الفوضى في مصر، وتعرض الأقباط لصنوف العذاب والتكيل.

وكانت الإسكندرية وقت أن انتتحتها عمرو بن العاص صلحاً في مستهل المحرم سنة ٢١هـ ما تزال تحتفظ ببعض مكانتها التي كانت تتبوأها منذ أن

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق عهد المعلم عامر، القاهرة ١٩٦١، ص ١١١٨ المقرئزي، كتاب المواضع والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بيروت، ج ١، ١٩٥٩، ص ٤٢.

أسسها الإسكندر، على الرغم مما أصاب عمرانها من أضرار بسبب الاضطرابات التي اجتاحتها إبان الصراع بين الوثنية الرومانية والمسيحية<sup>(١)</sup>، والنزاع المذهبي حول طبيعة المسيح بينها وبين الكنيسة البيزنطية<sup>(٢)</sup>، وكذلك بسبب تعرض جانب من عمرانها للتدمير أثناء الحصار الفارسي للإسكندرية من جهة<sup>(٣)</sup>؛ ونتيجة لهبوط قسم كبير من واجهتها الشمالية (الحي الملكي) إثر الهزات الأرضية والزلازل العنيفة التي تعرضت لها من جهة أخرى<sup>(٤)</sup>، بالإضافة إلى رحيل عدد كبير من سكانها عنها كليل الفتح العربي الأول لها في سنة ٦٤١هـ وفتحها الثاني سنة ٦٤٥هـ إلى القسطنطينية، بحيث خلت دورهم بعد رحيلهم عنها وأصبحت أخاذاً للعرب الفاتحين، ويتضح من كل ما ذكرناه أن الإسكندرية فقدت كثيراً من مكانتها ولم تعد بعد تأسيس القسطنطينية واتخاذها حاضرة للديار المصرية- المركز الإداري والثقافي الأول، لعدة اعتبارات تجعلها فيما يلي:

١- أن الإسكندرية بوقوعها على الساحل الشمالي لمصر كانت معرضة لأي هجوم بيزنطي من جهة البحر لى وقت لم يكن للعرب الفاتحين قدرات بحرية كافية لمواجهة البيزنطيين بحراً؛ فقد كان هؤلاء أصحاب السيادة الفعلية على سائر أنحاء حوض البحر المتوسط شرقيه وغربيه بحيث أطلق على هذا

<sup>(١)</sup> السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٦٥.

<sup>(٢)</sup> السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٤٦ - ٤٧.

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق نفسه، ص ٤٦؛ ألفريد بلكر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حنيد، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٤٥.

<sup>(٤)</sup> Gaston Jondet, Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos Memoires Presentes a l'Institut Egyptien, Vol. IX, Le Caïre, 1916, PP. 57- 63.

\_\_\_\_\_ , Les Ports Antiques de Pharos, Bulletin de la Societe archeologique d' Alexandrie, 1912.

البحر اسم بحر الروم. وليس من شك في أن الإسكندرية بل مصر كلها ربما كانت تتعرض لكارثة حقيقية لو أن العرب اتخذوها حاضرة لهم وتعرضت لغزو بحري بيزنطي؛ وهو ما حدث بالفعل سنة ٦٤٥هـ بعد أربع سنوات فقط من فتحها عندما دخلتها قوات البيزنطيين بقيادة ماتويل، الأمر الذي دعا عمرو بن العاص إلى حصارها بالمجانيق وتمسيره لقطاعات من أسوارها، وافتتاحه لها الفتح الثاني.

٢- الرغبة في كسب قلوب المصريين باتخاذ حاضرة تقع قريباً من موقع منف الحاضرة القديمة لمصر<sup>(١)</sup> لاسيما وأن أهل مصر كانوا ينظرون إلى الإسكندرية على أنها مدينة يونانية البناء والسكان ويعتبرونها خارج مصر .Ad Aegyptum

٣- كان الفاتحون العرب يستهدفون تعريب البلاد وذلك لا يمكن أن يتحقق باتخاذ الإسكندرية حاضرة للبلاد على الرغم من أخذها الكثيرة التي تضيهم عن بناء بيوت جديدة، وقد تطلب الأمر تأسيس مدينة عربية إسلامية تكون مركزاً للتعريب ونشر الإسلام، وفي موقع وسط يهيؤها للقيام بهذا الدور الإشعاعي للحضارة الإسلامية.

٤- انقطاع ترعة شديداً عن إمداد الإسكندرية بمياه النيل والاعتماد الكلي آنذاك على الآبار والصحاريح الجوفية؛ وهو أمر يعوق المشروعات الزراعية في جنوب الإسكندرية مما يحتم اختيار موقع آخر تتوفر فيه مياه السقيا.

لهذه الأسباب كلها كان لزاماً على الفاتحين العرب الاستغناء عن الإسكندرية كعاصمة إسلامية وتأسيس النسطاط لتقوم بدورها كمركز إشعاع للحضارة الإسلامية لاسيما وأنها كانت تشقها قناة تربطها بالبحر الأحمر وموانيه الحجازية (خليج أمير المؤمنين)، وقد ساعدت في تزويد دار الهجرة بما كانت تحتاج إليه من التمتع.

<sup>(١)</sup> سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية من الفتح العربي حتى العصر الفاطمي، مقال في كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أدم العصور، محافظة الإسكندرية، ١٩٦٣، ص ٢٤١.

وأخذت الإسكندرية تتعرب تدريجيًا لعاملين؛ الأول: انصراف أهل مصر عن الثقافة اليونانية وإقبالهم على الثقافة العربية الإسلامية؛ الأمر الذي دفع من بقى من سكان الإسكندرية الذين آثروا البقاء فيها بعد الفتح العربي إلى التخلي تدريجيًا عن ثقافتهم القديمة والإقبال على حضارة الإسلام، والثاني: نزول أعداد كبيرة من عرب اليمن بالإسكندرية ونواحيها بإقليم البحيرة لحراستها والمراقبة في محارستها، نخص بالذكر منهم بنو لخم وبنو جذام وبنو مدنج وكندة والأرد والحضارمة وخزاعة والمزاغنة، ويعتبر بنو مدنج اللخميون أئمة من نزلها من عرب اليمن<sup>(١)</sup>

واستمرت الإسكندرية مع تعربها تحتفظ ببعض سمات الثقافة اليونانية في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، ومن المرجح أن مجموعات من كتب الحكمة نجت من الكوارث التي تعرضت لها مكتبة الإسكندرية واحتفظ بها بعض العلماء السكندريين الذين استمروا يقيمون بالإسكندرية بعد الفتح العربي. وظهر من علمائها شخصيات علمية مرموقة في الكيمياء والطب والفلسفة نذكر منهم على سبيل المثال الراهب مريانوس الذي أخذ عليه خالد بن يزيد بن معاوية علم الكيمياء<sup>(٢)</sup>، وكان خالد هذا مولعًا بدراسة هذا العلم وعرف لذلك بحكيم آل مروان<sup>(٣)</sup>، ومنهم يحيى النحوي الإسكندراني الذي نبغ في الفلسفة والطبيعات، وعبد الملك بن بحر السكندري في الطب<sup>(٤)</sup> وكان يعرف بغرماطيقوس، أما

---

(١) المقرئزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٦١، ص ١١٠٥ سحر السيد عبد العزيز سالم، للقبائل اليمنية في الإسكندرية والبحيرة ودررها في حوادث التاريخ الإسلامي، ندوة العلاقات المصرية- اليمنية، القاهرة، ٦-٨ فبراير ١٩٩٠.

(٢) ابن النديم، الفهرست، نشر جستانف فلوجل، لبيزج، ١٨٧١، نسخة مصورة، بيروت ص ١٢٥٤ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، ص ٤٣١.

(٣) ابن النديم، المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأقباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٦٥، ص ١٧١.

ترقيتاسينس الطبيب، وكان يتولى التدريس بالإسكندرية في عصر الدولة الأموية وأريتاسيوم واشتغل بالطب أيضا ماغنوس وفوليس المعروف بالقوابلي؛ وكان خبيراً بعلم النساء، ويليطان السكندري (ت ١٨٦هـ) الذي يعث الخليفة هارون الرشيد في طلبه لتطبيب إحدى جواريه، وسعيد بن نوفل الذي كان يعمل في خدمة أحمد بن طولون.

وفي مجال الثقافة البحرية حظيت الإسكندرية في هذه القرون الثلاثة الأولى من الهجرة بشهرة كبيرة كقاعدة بحرية متوسطة مهمة، ودار صناعة رئيسة في مصر، وكان يعمل بها عدد كبير من صنّاع السفن؛ كالتجارين والمقلّطين وقصّاري الأقمشة ممن كانوا يشتغلون في دار صناعتها البطلمية<sup>(١)</sup>، وكان العرب الفاتحون لإفريقية (تونس) يعتمدون في غزواتهم البحرية من سنة ٢٨هـ إلى سنة ٨٩هـ- على الأسطول المصري الراسي في قاعدة الإسكندرية البحرية، لكن بعد هذه القاعدة عن إفريقية وصقلية، بحيث يستغرق الوصول إليها فترة طويلة، يضاف إلى ذلك أن كثرة الصدامات البحرية بين العرب والبيزنطيين في شرق البحر المتوسط، واشتغال الأسطول السكندري بحراسة السواحل المصرية الشامية ألزم أحد ولاة العرب على إفريقية -وهو حصان بن

(١) السيد عبد العزيز سالم، ولحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ج ١، الإسكندرية ١٩٩٣، ص ٢٥، وقد عثر في شارع أسائل الغلال بميناء البصل في الثمانيات على مدخل أثرى على شكل صرح يقضى إلى درج هابط ينتهي بباب يعلو فتحته شق أتقى أغلب الظن أنه يتعلق بمشط حديدي كان يعلو ويهبط عند الضرورة عن طريق سريقات جانبية وكان الظن آنذاك أن هذا الأثر يتعلق بباب الخوخة الذي كان يفتح في الجانب الغربي من السور الشمالي، لكن وجود المدخل العلوي على شكل صرح فرعوني الطابع جعلني أرجح أنه يرجع إلى العصر البطلمي، وفي تصوري أنه مدخل دار الصناعة البطلمية التي ورد ذكرها في كتاب «الإمام بما قضت به الأحكام» للنويري السكندري على أنها دار الصناعة الغربية، وهي دار الصناعة البحرية لتقديمه التي واصلت نشاطها في العصر الإسلامي، وكانت تتج مع زميلتها الشرقية السفن الحربية.

النعمان الغساني - بالتفكير جدياً في إنشاء قاعدة بحرية ودار صناعة على مقربة من ساحل قرطاجنة لإنشاء أسطول ينفرد بتحركاته لغزو جزر البحر المتوسط الغربي وحماية سواحل إفريقية من غارات البيزنطيين، ولم يقره حسان بن النعمان الغساني في الكتابة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يطلب منه أن يعث إليه من الإسكندرية طائفة من البحريين الأكباط، المتفوقين في الثقافة البحرية، والمتمرسين في صناعة السفن، ليتولوا إنشاء دار صناعة تونس الحديثة، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وإلى مصر يأمره بأن «يوجه إلى معسكر تونس ألف قبلى بأهله وولده، وأن يحملهم من مصر، ويحصن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس - وكتب إلى ابن النعمان يأمره أن يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ... وأن يصنع لها العراكب ويجاهد الروم في البر والبحر، وأن يغار منها على ساحل الروم»<sup>(١)</sup> فولد القبط عليه وهو مرابط بتونس، وأسهموا - على هذا النحو - في بناء هذه القاعدة البحرية، وقد سبق لأكباط الإسكندرية من البحريين وممن لديه قدرة على القتال بحراً، أن أسهموا في المعارك البحرية التي خاضها العرب مع البيزنطيين في شرق البحر المتوسط وأهمها ولعة ذات الصواري<sup>(٢)</sup> وغزو قبرص سنة ٢٨هـ، وبالإضافة إلى تفوق الإسكندرية في مجال الثقافة البحرية، كانت الإسكندرية مركزاً متقدماً في الثقافة الفنية ويتمثل ذلك بحق في آثارها القديمة التي كانت مصدر إعجاب كل من شاهدها من رحالة المغرب والأندلس على وجه الخصوص، لا سيما من كانت لديه دراية بصناعة البناء، وأثارت بعظمتها مشاعرهم، وأشهرها منار الإسكندرية الذي كان يراه رباتو السفن والملاحون في

<sup>(١)</sup> البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سيلان، الجزائر، ١٩١١، ص

٢٨، التتجاني، رحلة التتجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨، ص ٤٥

ابن أبي دينار، المولى في تاريخ إفريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦هـ، ص ١١.

<sup>(٢)</sup> راجع التفاصيل في: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية في مصر والشام، ص ٣٢

البحر على مسافة بعيدة يقدرها ابن جبير بأكثر من سبعين ميلاً فيهدبهم إلى طريق الأمان، وفي ذلك يقول ابن جبير في رحلته: «ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين، وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الإسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلاً، ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولاً وعرضاً، يزاحم الجو سماً وارتفاعاً، يقصر عنه الوصف، وينحصر دونه الطرف...»<sup>(٤١)</sup>.  
وعنه يقول خالد بن عيسى البلوي صاحب كتاب «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»: «هتمكن اليأس، وعظم البأس، وسقط في أيدي الناس، فضجوا بالدعاء... واختلف إليهم أنواع الهلاك والبلاء... وظهر منار الإسكندرية، فأعلم الناس بذلك، فضجوا سروراً بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكادوا أن يقضى عليهم الأمل، ومن فرح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سروراً بعدما باتوا بأفئدة يراع خواق

فما رأيت قبلها بشارة أحلى في النفوس، وأوقع في القلوب، ولا أعظم سروراً من سرور الخلق بها في تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلنت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسر على الفكر، فقلت:

بشراكم لاح المنار الأسعد ودنا على اليأس المرام الأبعد

وتنفس الكرب الذي كنا به في حالة البلوى نقوم ونقع

واقتر من إسكندرية ثغرها الوضاح فهو منظم ومنضد<sup>(٤٢)</sup>»

هذا المنار الشهير كان في تصور المسافرين في البحر أعجوبة من أعاجيب الدنيا، وهداية لهم إلى النجاة من صولة البحر، رسخت صورته في

<sup>(٤١)</sup> ابن جبير، رحلة بن جبير، تحقيق وليام رايت، لندن، ١٩٠٧، ص ٤١.

<sup>(٤٢)</sup> البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، ج ١، المحمدية،

مخيلاتهم، واتخذوه أنموذجاً يقلدونه في بناء منائر مساجدهم؛ فنشهد تقليداً واضح المعالم لصورته الخارجية في كل من منئتي جامع القيروان وجامع سفاقس، كما نشهده مقلداً من جوفه في مآذن جامع الكتبية بمراكش وجامع حسان بالرباط في المغرب وجامع القصبه بإشبيلية في الأندلس من عصر الموحدين<sup>(١)</sup>؛ ومن آثار الإسكندرية القديمة -التي أثارت إعجاب الرحالة والزائرين- بقايا دار الحكمة (ميوزيوم) التي ظلت قائمة في العصر الإسلامي، فوصفها الرحالة المسلمون أمثال ابن رسته<sup>(٢)</sup>، وسماعها الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي باسم أكاديمية أرسطو<sup>(٣)</sup>، كانت أنموذجاً لمكتبات ومجامع علمية مغربية؛ فقد قلدها الرستميون في تاهرت فيما أطلق عليه «المكتبة المعصومة» التي كانت تضم نحواً من ٢٠٠ ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم، ولكنها بُدّدت على أيدي الفاطميين عند استيلائهم على تاهرت في سنة ٢٩٦هـ بعد احتفاظهم بعدد كبير من كتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب<sup>(٤)</sup>، كما امتكها الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩هـ) الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء بيت الحكمة برقادة؛ فقد كان شغوفاً بالعلم، ودفعه ولعه بالعلوم الرياضية والحكمة، واشتغاله بالفلسفة وتقرّبه للعلماء إلى تأسيس هذا المجمع العلمي، واستقدم إليه أعداداً كبيرة من علماء الفلك والطب والنبات والهندسة والرياضيات من المشرق والمغرب<sup>(٥)</sup>

(١) السيد عبد العزيز سالم، التبادل الفنى بين مصر والأندلس في العصر الإسلامي، بحيث اتى في المؤتمر الدولي الأول للتبادل الحضارى بين شعوب البحر المتوسط صبر

التاريخ، الإسكندرية ١٩٩٣،

E. A. Salem, The Influence of the Lighthouse of Alexandria on the minarets of North Africa and Spain, Rev Islamic Studies, vol 30, 1991.

(٢) ابن رسته، كتاب الأعلاق النفسية، ج ٧ من المكتبة الجغرافية، تحقيق دى غويه، ليدن ١٨٨١-١٨٨٢، ص ١٠٨.

(٣) Benjamin de Tudela, Via de Benjamin, Madrid, 1918, P. 113.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ١٩٠.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق.

وزوده بالآلات الفلكية، وكان بيت الحكمة الأعلى مقرًا تعقد فيه المجالس العلمية للمناظرة، وكان يشهد هذه المجالس علماء بارزون من نقباء المالكية والحنفية، ومن المكتبات التي جاءت تقليدًا لمكتبة الإسكندرية مكتبة قصر الخلافة بقرطبة، وكانت تضم في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ٤٠٠ ألف كتاب في مختلف أنواع الفنون والعلوم بُدنت سنة ٤٠٣هـ زمن الفتنة، فبيع أكثرها على يدي الحاجب واضح العامري، ونهب ما تبقى منها على إثر دخول البربر مدينة قرطبة في سنة ٤٠٣هـ المذكورة<sup>(١)</sup>.

واستعادت الإسكندرية منذ القرن الثالث الهجري بعض شهرتها في مجال الثقافات الفنية والدينية والأدبية، ففي مجال الثقافة الفنية، بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً فيما يتعلق بفن عمارة منار الإسكندرية، ومدى تأثيره على مآذن المساجد المغربية الأندلسية، حظيت الإسكندرية بمكانة سامية في فن الغناء والطرب، فكانت مركزاً من المراكز الرئيسية في هذا الفن شأنها شأن دمشق والمدينة في عصر الخلافة الأموية، فكانت من بين من ضاقت الإسكندرية بهم من فنانيها في هذا المجال شاب حدث متظرف يحسن الغناء يدعى عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني (ت ٢٣٧هـ) كان موهوباً بإجادته الغناء وبقدراته وذكائه، وفد إلى قرطبة في بداية إمارة عبد الرحمن الأوسط، فاتصل بالحاجب عيسى بن شهيد الذي توسم فيه الذكاء والكفاية، فنصحه بأن يمصك عن الغناء ويكتفى بالتركيز على قدراته الأدبية، فامتثل لنصحه، وحظى لديه بمنزلة رفيعة، وقدمه إلى الأمير عبد الرحمن الذي كان يقدر نبوغ الموهوبين، فأعجب به، فرفع منزلته، ونامه، وأسند إليه خطة صاحب المدينة بقرطبة، وراقى بعد ذلك إلى الوزارة والقيادة<sup>(٢)</sup>، ومن الجدير بالذكر أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، على

<sup>(١)</sup> السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس، ج ٢، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص ١١٦٢؛ إبراهيم عبد المنعم سلامة، الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية، رسالة ماجستير نواشت بأداب الإسكندرية ١٩٩٣، ص ٢٥٧، ٤٤٩.

<sup>(٢)</sup> ابن حبان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، لطفة خاصة بالسنوات الأخيرة من عهد-

الرغم من أعبائه الثقيلة ومشاغله المختلفة بعث في سنة ٣٤٤هـ إلى ثغر الإسكندرية سفينة ضخمة ليستقدم إلى الأندلس عددًا ضخمًا من الجوارى البارعات في فنون الغناء والطرب<sup>(١)</sup>، وفي مجال الفقه والأدب شارك عدد من علماء الإسكندرية الأعلام ممن اجتذبهم اهتمام بنى أمية في الأندلس بالتقافات المشرقية والعلوم في الحركة العلمية بقرطبة؛ ففي الحديث والفقه أسهم بعض علماء الحديث السكندريين في نشر المذهب المالكي وازدهاره في الأندلس، كما أدخل بعضهم المذهب الشافعي، ومن أبرز علماء الإسكندرية الذين رحلوا إلى الأندلس في عصر ملوك الطوائف الفقيه المحدث زيد بن حبيب بن سلامة القضاعي الإسكندراني الذي دخل الأندلس في سنة ٤٣٣هـ وكان شافعي المذهب<sup>(٢)</sup>، والفقيه أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندراني (عاش في القرن السادس الهجري) الذي تتلمذ في الإسكندرية على يد الشيخ الحافظ أبي الطاهر أحمد السلفي، والفقيه محمد بن محمد بن محارب القيسي الإسكندراني الذي دخل الأندلس في أواخر القرن السادس الهجري، ونزل بقرنطبة، وروى عن الفقيه عبد المنعم بن محمد الخزرجي المعروف بأبن الفرس (ت ٥٩٧هـ)<sup>(٣)</sup>، والفقيه المحدث أحمد بن معد التجيبي الإسكندراني المعروف بالإقليشي (ت ٥٥١هـ)

---

١- الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر الأمير محمد، نشر وتحقيق محمود علي مكى، بيروت ١٩٧٣، ص ١٣٠ سحر عبد العزيز سالم، أضواء على فن الغناء والموسيقى في الأندلس في عصر الدولة الأموية وعصر دويلات الطوائف، من كتاب بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، الإسكندرية ١٩٩٧، ص ٦٩.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ٩٤ اعتمادًا على ابن الأثير، الكامل في التاريخ، لندن ١٨٦٧، ج ٨، ص ٥١٣.

(٣) ابن بشكوال، الصلة في تاريخ علماء الأندلس، القاهرة ١٩١٦، قسم ١، ص ١٩٢، ترجمة ١٣٤٩ كمال السيد أبو مصطفى، دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، الإسكندرية ١٩٩٧، ص ١٣٣.

(٤) كمال أبو مصطفى، المرجع السابق (شخصيات سكندرية في الأندلس)، ص ١٣٤.

الذى استقر بدائية، وأخذ على الفقيه القاضى أبى بكر محمد بن العربى المعانرى الإشبلى، وأبى على حسين بن محمد بن ليرة بن حيون المعروف باين سكرة الصدفى السركسلى، وعبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى الغرناطى، والمورخ محمد بن أبى السرور الإسكندرانى الذى نخل الأندلس فى أواخر القرن الخامس الهجرى<sup>(١)</sup>.

وازدهرت الحياة الثقافية بالإسكندرية ونشطت نشاطاً واضح المعالم فى العصر الفاطمى، واستعادت نضارتها القديمة، وأصبحت مركز الرحلة وغاية الطلب، واجتذبت طلاب العلم إليها لا سيما من الغرب الإسلامى بحيث أصبح يطلق عليها باب المغرب<sup>(٢)</sup>، وتأسست بها فى هذا العصر مدرستان سنيتان قبل أن ينتشر نظام المدارس السلجوقية بمصر فى عصر الدولة الأيوبية، هما المدرسة العونية أو الحانظية التى أسسها الوزير الفاطمى رضوان بن ولخشى فى سنة ٥٣٢هـ فى خلافة الحافظ لدين الله، وكان يتولى التدريس بها الفقيه العالم أبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عوف الزهرى الإسكندرانى، وكان صلاح الدين يوسف يتردد عليه ويسمع منه العوطاً، وتوفى فى شعبان سنة ٥٨١هـ<sup>(٣)</sup>، أما المدرسة الثانية فهى المدرسة السلفية أو العادلية التى أسسها العادلى على بن السلا والى الإسكندرية أثناء ولايته وذلك فى سنة ٥٤٤هـ وقدم للتدريس بها الفقيه الشافعى أبى الطاهر عماد الدين أحمد السلقى الأصفهانى، وكان عالماً جليلاً أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية، قدم إلى

<sup>(١)</sup> المرجع نفسه، ص ١٢٤.

<sup>(٢)</sup> الإبريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الأقطار، القاهرة، ج ٢، ص ٥٠.

<sup>(٣)</sup> الذهبى، العبر فى خبر من غير، تحقيق صلاح الدين المجدد، ج ٤، الكويت، ١٩٦٠، ص ٢٤٢ جلال الدين السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ج ١، طبعة مصر ١٣٢١هـ، ص ٢١٤ جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١١٢-١١٢٥ السعيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص ٢١٨، هامش ٣.

الإسكندرية في سنة ٥١١هـ وتوفى في ٥ من ربيع الآخر سنة ٥٧٦هـ ودفن بمقبرة وعة<sup>(١)</sup>، وكان السلطان الناصر صلاح الدين يوسف علي الرغم من مشاغله العديدة في مواجهة الصليبيين وتوحيد الجبهة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر- يهتم فرصة وجوده بمصر فيزور الإسكندرية ويتردد على شيخها الجليلين العوفي والسلفي، وأهم هذه الزيارات زيارته للسلفي في ٢٥ شعبان سنة ٥٧٢هـ، وكان يقصده أيام الخميس والجمعة والسبت من الأسبوع<sup>(٢)</sup>، وزيارته للعالم أبي الطاهر بن عوف في ١٧ شوال سنة ٥٧٧هـ وسماعه لروايته الحديث عن الطرطوشي ثاني يوم وصوله إلى الإسكندرية<sup>(٣)</sup>. ويرجع اهتمام صلاح الدين بالإسكندرية إلى زمن الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد حيث أولاه كثيرًا من عنايته علميًا وعسكريًا، وكان محور رعايته لها عسكريًا تمكين عمارة أسوارها وتعميره لأسطولها، وعلميًا رعايته لأوفى العلم وللتقوى من أهلها الذين كانوا يعيلون إلى المذهبين المالكي والشافعي اللذين كانت جذورهما متصلة في الإسكندرية منذ العصر الفاطمي، وساعد على ذلك ما كان يبذله فقهاؤها من جهود لمناهضة التشيع، وكان من أبرز شيوخها في هذا المجال شيخ المالكية الفقيه العالم الأندلسي أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان الفهرى الطرطوشي نزيل الإسكندرية المعروف بابن أبي رندقة<sup>(٤)</sup> المتوفى في

<sup>(١)</sup> للسبكي، طبقات الشافعية، ج٤، القاهرة ١٣٢٤هـ، ص ٤٥، ابن كثير المشقي، البدلية والنهابة في التاريخ، ج ١٢، القاهرة ١٩٣٢، ص ٣٠٧، السيوطي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٥.

<sup>(٢)</sup> أبو شامة، للروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٥٦، ج ٢، ص ١٦٨٩، ابن كثير للمشقي، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٩٦.

<sup>(٣)</sup> للمقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٧٦.

<sup>(٤)</sup> ابن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، مجلد ٢، مدريد، ١٨٨٣، ص ١٥١٨ الضبي، بغية الملتصق في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق كويبره، مدريد، ١٨٨٥، ص ١٢٥-١٢٨، الذهبي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٨، السيوطي، المصدر السابق،-

جمادى الأولى سنة ٥٢٥هـ، ومنذ هذا الحين توافد على الإسكندرية عدد كبير من علماء المغرب الأندلس الذى أسهموا فى تنشيط الحياة الثقافية بالإسكندرية، وكان لهم دور رائع فى ازدهار الفقه المالكي فى هذا الثغر، نذكر منهم على سبيل المثال أبو القاسم بن مخلوف المغربى نزيل الإسكندرية (ت ٥٢٣هـ)، وأبو الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة المالكي<sup>(١)</sup>، والفتية الشافعي أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز اللخمي الميورقي نزيل الإسكندرية (ت ٥٢٣هـ)<sup>(٢)</sup> والفتية أبو العباس الوليد بن بكر بن مخلد العمري السركسلى (ت ٣٩٢هـ) ، ومحمد بن عمر الفخار القرطبي (ت ٤١٩هـ) ، والشيخ المقرئ ضياء الدين أبو الحسن على بن محمد الخزرجي الساعدي الغرناطي<sup>(٣)</sup>، وناصر الدين محمد بن حسن بن عبد الملك بن ساطر اليونى، الأنيب جمال الدين أبو عبد الله محمد بن حسن بن على بن التونسى<sup>(٤)</sup> وأبو عبد الله محمد بن مسلم بن محمد القرشى المازرى الصقلى<sup>(٥)</sup> وعبد الرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف الصقلى المعروف بابن القمام - وكان من شيوخ القراء فى الإسكندرية<sup>(٦)</sup> - وأبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأتصاري المالكي القرطبي (ت ٥٥٦هـ)<sup>(٧)</sup> والحافظ المقرئ الحسن بن

= ج ١ ، ص ٢١٢ جمال الشيال، المرجع السابق، ص ١١٠٠٥٥٠ الشيال، أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد لثائر، سلسلة أعلام العرب، عدد ٧٤ لسنة ١٩٦٨ والمصدر ص ٤ العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضاراتها فى العصر الإسلامى، ص ٢٢٣ هلمش ٤ .  
<sup>(١)</sup> المقرئ، نفع الطيب من حصن أندلس الرطيب، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ج ١٣، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩.

<sup>(٢)</sup> السيوطى ، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٩.

<sup>(٣)</sup> ابن رشيد السبتي، ملأ العيبة بما جمع بطول الغيبة، ج ٣ تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن اللخوجة، تونس ، ١٩٨١، ص ٣٤-٣٥.

<sup>(٤)</sup> ابن رشيد السبتي، المصدر السابق، تقديم، ص ٣٧.

<sup>(٥)</sup> الضبي، المصدر السابق ، ص ١٣٢ ، ١٣٤.

<sup>(٦)</sup> السيوطى، المصدر السابق، ج ١ ، ص ٢٣٥.

<sup>(٧)</sup> السيوطى، نفس المصدر، ص ٢١٥.

خلف بن بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية<sup>(١)</sup> (ت ٥١٤هـ) واليسع بن حزم الغالقي الجياني نزيل الإسكندرية في عصر السلطان صلاح الدين (ت ٥٧٥هـ)<sup>(٢)</sup> والقاسم بن خيرة بن خلف الشاطبي (ت ١٥٥هـ)<sup>(٣)</sup> وأبو علي منصور بن لب الأنصاري الأندلسي<sup>(٤)</sup> ، ولن الجرج أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الأنصاري التلمساني، وكان لهؤلاء الفقهاء الواقديين من الغرب الإسلامي أعظم الأثر في دعم الدراسات والثقافات المتعلقة بالفقه المالكي ، وساعد على ذلك وجود المدرستين الفاطميتين السلفية والعرافية، وتمسك أهل الإسكندرية بالمذهب المالكي متأثرين في ذلك بعلماء المغرب والأندلس المالكيين، وكان لكثرة عدد هؤلاء بالثر السكندري الأثير لنزولهم في عصر الدولة الأيوبية أكبر الأثر في حمل السلطان الناصر صلاح الدين في إنشاء دار لهم بالإسكندرية ينزلون فيها متى شاعوا وبها من القومة من يتكفل بمعيشتهم، كما أقام لهم -عند زيارته للإسكندرية سنة ٥٧٧هـ- مرسمتان وحمامًا ومدرسة على ضريح المعظم تورانشاه<sup>(٥)</sup> .

وبلغت الإسكندرية ذروة تقدمها العلمي والثقافي في عصر دولة المعاليك بفضل مدارسها العديدة التي أسهم في بنائها تجار الكارم؛ فكان منها -بالإضافة إلى العرفية والسلفية- المدرسة الخلاصية، والمدرسة الفابلسية، ومدرسة التكريتي التي تتسب إلى ابن الكويك التاجر الكارمي السكندري، ودار الحديث للتكريتي للفقه الشافعي ، ودار الحديث النبيهية للفقيه المالكي، ومدرسة الفخر، ومدرسة البليبيسي، ومدرسة ابن حياصة، ومدرسة الدماميني السكندري، والمدرسة الخضراء المنسوبة إلى منشئها الشيخ خضر بن أبي بكر العدوي،

<sup>(١)</sup> نفس المصدر ، ص ٢٢٥ .

<sup>(٢)</sup> نفسه، ص ٢٢٦ .

<sup>(٣)</sup> المصدر نفسه، ص ٢٢٦ .

<sup>(٤)</sup> المقرئ، فنج الطيب، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

<sup>(٥)</sup> ابن جبير، الرحلة ، ص ١٤٢ المقرئ ، السلوك، ج ١ ، ص ٢٦ .

والمدرسة السراجية، ومدرسة قايتباي، ومدرسة ابن الأبيزاري، وهذا بخلاف كثير من الربطة والخانقوات التي كانت تضم خلوات وأضرحة مخصصة للصوفية والزهاد نذكر من بينها رباط سوار، ورباط الهكاري المنسوب إلى باخل بن عبد الله الهكاري متولى ثغر الإسكندرية في عهد السلطان المنصور قلاوون (ت ٦٨٣هـ) وكان يقع خارج باب رشيد (الباب الشرقي من أبواب الإسكندرية)، ومنها أيضا رباط ابن سلام المنسوب إلى مفتنه أبي عبد الله محمد بن سلام، وكان يقع خارج باب البحر، تأسس قبل وقعة القبارصة سنة ٧٦٧هـ بأكثر من عام، ورباط ابن طغية الواقع على مقربة من رباط ابن سلام، ورباط قجماس الإسحاقى نائب سلطنة الإسكندرية في عهد السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي، وكان يقع خارج باب البحر، وخانقاه بيليك الحسنى، الذى ولى الإسكندرية فى القرن السابع<sup>(١)</sup>.

وبفضل هذه المنشآت العلمية ازدهرت الحياة الثقافية بالإسكندرية المملوكية وجمعت بيت الثقافات المغربية الأندلسية والمشرقية سواء فى الطب والهندسة والفلسفة أم العلوم والثقافات الإسلامية، وتنج عن ذلك ما صمى بالاندماج الثقافى؛ فمن علماء المغرب والأندلس الذين نزلوا بالإسكندرية وشاركوا بعلومهم فى الحركة العملية بالثغر فى هذا العصر الفقيه الزاهد نزيل الإسكندرية أبو عبد الله محمد بن سليمان المعاترى الشاطبى الذى انقطع للعبادة فى رباط سوار بتربة أستاذه أبي العباس المرسى وتولى فى رمضان سنة ٦٧٢هـ<sup>(٢)</sup>، والشيخ الأكبر العارف بالله أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى رأس أصحاب الشيخ أبي الحسن الشافعى (ت ٦٨٦هـ)<sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد جاد الحق، للقااهرة ١٩٦٦، ج ٥ ص ١٤٣.

<sup>(٢)</sup> المقرئ، نفع للطيب، ج ٣، ص ٣٤١.

<sup>(٣)</sup> جمال الدين الشيبان، أعلام الإسكندرية، ص ١٩٥-٢١٢؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص ٤٧٥، هامش ١.

وغيرهما من شيوخ المغرب والأندلس. وعلى أيدي هؤلاء الجلة من العلماء المغاربة والأندلسيين تتلمذ كثير من أهل الإسكندرية في الحديث والقراءات وللقه وفتح منهم على سبيل المثال جعفر بن علي بن هبة الله أبو الفضل الهذائي الإسكندراني المقرئ المحدث (ت ٦٣٦هـ) وابن الصفرأوى الإسكندراني (ت ٦٣٦هـ) وناصر الدين أبو العباسي أحمد بن محمد بن منصور الجذامي الإسكندراني أحد الأئمة المتبحرين في العلوم الدينية من التفسير والفقهاء والأصول، بالإضافة إلى نبوغه في العربية والبلاغة والأنساب (ت ٦٨٣هـ)<sup>(١)</sup>، وابن أخيه عبد الواحد بن شرف الدين بن المنير (ت ٧٣٦هـ)<sup>(٢)</sup> والحافظ ابن العماد أبو المظفر منصور بن سليمان الهذائي الإسكندراني الشافعي الذي صنف في الحديث والفقهاء وتاريخ الإسكندرية<sup>(٣)</sup>، والمكين الأسمر عبد الله بن منصور الإسكندراني شيخ قراء الإسكندرية (ت ٦٩٢هـ)<sup>(٤)</sup>، ويحيى بن أحمد بن الصواف الجذامي الإسكندراني (ت ٧٥٠هـ)<sup>(٥)</sup> والشيخ الزاهد أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى العالكي الإسكندراني المعروف بالقباري (ت ٦٦٢هـ)<sup>(٦)</sup>، وتاج الدين ابن عطاء الله أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامي الإسكندراني المتصوف، أحد تلامذة الشيخ أبي العباس المرسي (ت ٧٠٧هـ) وبالقوت العرش تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي (ت ٧٣٢هـ) ، وفي علوم اللغة والنحو محمد بن عبد العزيز الإسكندراني (ت ٦٩٣هـ) ويذر الدين محمد بن أبي بكر النعاميني الإسكندراني (ت ٨٢٧هـ) وفي الشعر والأدب النساج بن غنوم الإسكندراني (ت ٦٨٠هـ)<sup>(٧)</sup>.

(١) السيوطي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٦.

(٤) نفسه، ص ٢٤٠.

(٥) نفسه، ص ٢٤٠.

(٦) نفسه، ص ٢٤٨.

(٧) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٥٤٧.

ويتبين مما سبق عرضه أن التواصل الثقافي بين الإسكندرية والمغرب لم ينقطع منذ عصر الخلافة الأموية حتى نهاية دولتي المماليك، وكان لوفود عدد كبير من علماء المغرب والأندلس إلى الإسكندرية في موجات ونزولهم بها أعظم الأثر في دعم ثقافتها بروافد ثقافية مغربية أثرت الحياة الثقافية في الثغر المحروس ، وأنجبت الإسكندرية أجيالا من علمائها توفرت لديهم مقومات نهضتها العلمية والحضارية في العصر المملوكي بوجه خاص وجعلتها بحق من أهم مراكز الإشعاع الثقافي لى عالم البحر المتوسط.